الفصل الأول
أحوال العرب قبل الإسلام
وحياتهم فى الجاهلية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
أحوال العرب قبل الإسلام
وحياتهم فى الجاهلية

العرب القدامى وأقسامهم:

العرب أحد الشعوب السامية، نسبة إلى سام بن نوح - عليه السلام- ، وقد تحدث علماء اللغة والأدب والتاريخ عن وجه تسمية العرب بهذا الاسم[1].

يقول الآلوسي: إنهم سُموا بالعرب لاشتهارهم بالفصاحة والبيان من قولهم: أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه.[2]

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

"إن اللفظة قديمة يراد بها فى اللغات السامية معنى البدو والبادية وكانت هذه خاصية العرب فى التاريخ القديم، ولكن لما تحضر بعضهم وسكنوا المدن وأقاموا فيها خصوا لفظة "العرب" بهؤلاء الذين يعيشون فى المدن، وأطلق على سكان البادية "الأعراب".

ولما جاء الإسلام أصبح لفظ الأعرابى يدل على الجفاء وغلظ الطبع، وبذلك خرجت الكلمة عن معنى البادية، ولكن الأعراب كانوا دائماً معروفين بأنهم أهل الفصاحة، فكان الرواة يلتمسونهم ويحملون عنهم، ويرون فيهم أنهم أهل اللغة العربية الفصحى".[3]

---

(1) لسان العرب لابن منظور، مادة "عرب"، دار المعارف.
(2) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للنويرى، ج1، ص7.
(3) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى، ج1، ص43، مطبعة الاستقامة، الطبعة الثانية، 1359هـ/1940م.

وعلى كل فالمقصود بلفظة "العرب" جميع السكان الذين كانوا يعيشون فى شبه الجزيرة العربية، سواء كانوا حضريين أم بدويين، وإن كان الجائز أن لكل من النوعين سمات خاصة تميزه عن النوع الآخر.

أقسام العرب:

قد اعتاد المؤرخون بوجه عام أن يقسموا العرب القدامى ثلاثة أقسام[1] ولكنهم يختلفون فى تسمية كل قسم، فمنهم من يقول: بائدة أو عاربة ومستعربة وتابعة للعرب، ومنهم من يطلق عليها: عاربة وقحطانية وعدنانية، ومنهم من يجعلها عاربة ومتعربة ومستعربة، والحقيقة أن الخلاف لفظى إذ أن المقصود بكل واحد من الأقسام الثلاثة واحد بين الجميع، فلا خلاف بينهم إلا فى التسمية اللفظية فقط.

ونأخذ الآن فى بيان هذه الأقسام من وجهة نظر التقسيم الأخير، وهو عاربة ومتعربة ومستعربة[2] لخفته وسهولته.

العرب العاربة:

هو لفظ مشتق من العرب، ربما يقصد به التأكيد للمبالغة فالعاربة هنا إما بمعنى الراسخة فى العروبة، كما يقال "ليل لائل" وصوم صائم، وإما بمعنى الفاعلة للعروبة أو المبتدعة لها، لكونها أول أجيالها.[3]

---

(1) جعلهم ابن خلدون أربعة أقسام: عاربة ومستعربة، وتابعة للعرب وعرب مستعجمة، ويقصد بالقسم الرابع من له ملك بدوى بالمشرق والمغرب، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم، "بلسان عربى مبين.

(2) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى، ج1، ص31.

(3) بلوغ الأرب، ج1، ص9.

وهذا القسم يسمى أيضاً "العرب البائدة" بمعنى الهالكة لأنهم بادوا ودرست آثارهم، ولم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم.

ويذكر المؤرخون أن هذا القسم كان يتكون من شعوب كثيرة منها:

1- عـــاد:

وكانت مساكنهم بالأحقاف "بين اليمن وعُمان إلى حضر موت والشحر"، ويقال إنهم كان لهم دولتان عظيمتان عاد الأولي، وعاد الآخرة، ويقولون إن عاداً الأولى كانوا أيام تحتمس الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية، ولما عظم أمرهم طغوا وبغوا، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم هوداً "عليه السلام"، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، فأرسل الله على الكافرين ريحاً عاتية أهلكتهم ودمرت ملكهم، ونجّى الله هوداً ومن معه ممن آمن به وهم عاد الآخرة فلبثوا فى اليمن إلى أن غلب على الملك يعرب بن قحطان فاعتصموا بجبال حضرموت حتى انقرضوا.

ومن أعظم ملوك عاد: شداد الذى تنسب إليه أعمال عظيمة وفتوح واسعة، منها بناء مدينة أرم فى صحارى بلاد عاد، ويقال أنه كان تشييدها بالحجارة الكريمة، وتزيينها بالجواهر واللآلئ، ويقول ابن خلدون: "ليست هناك مدينة اسمها أرم وإنما هى خرافة، وأرم قبيلة لا مدينة".[1]

---

[1] قلب الجزيرة العربية، ص216.

2- ثمود:

وهؤلاء كانت ديارهم فى الحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام، وكان لهم فى العلا ومدائن صالح منشآت عظيمة، وكانوا ينتحون بيوتهم فى الجبال الصخرية، وأرسل الله إليهم صالحاً ـ عليه السلام ـ فكفروا به، وعقروا الناقة، فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

3- العمالقة:

وكان يضرب بهم المثل فى ضخامة الأجسام، وكان موطنهم عامة أرض تهامة الحجاز، وهناك روايات تذكر أنهم كانوا منتشرين فى بقاع كثيرة، وتحدث عنهم كثير من المؤرخين، وورد ذكرهم فى التوراة فى سفر التكوين[1]. ويقال إنه كان منهم فراعنة مصر، وجبابرة الشام الكنعانيون.[2]

4- مدين:

هم القوم الذين أرسل الله إليهم شعيباً ـ عليه السلام ـ ومدين ـ أيضاً ـ اسم البلاد التى كان يسكنها قوم مدين، وموطنهم إلى الشرق والجنوب الشرقى من مدينة العقبة، ومن حدود وادى عرابة إلى منطقة جبال الحسمة من الشرق إلى الجنوب حتى بلدة ضبا، وكانوا يعبدون الأوثان، ويقطعون الطرق، ويبخسون المكيال فأرسل الله إليهم شعيباً ـ عليه السلام ـ فكفروا به، فأخذتهم الرجفة فهلكوا.

---

(1) قلب الجزيرة العربية، ص216.

(2) تاريخ العرب القدامى لفليب متى، ص11.

5- طسم وجديس:

كانت ديارهم فى اليمامة، ويروى ابن هشام أنهم لما نزلوا فى اليمامة قبل جديس، وذكر ابن خلدون أن ملك طسم كان غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه، وكان مضراً لجديس ومستذلاً لهم، وبلغ من عسفه أنه أمر ألا تزف بكر من جديس إلى بعلها قبل أن تبدأ به أولاً، فآثار ذلك حفيظتهم فقتلوه.

6- أميم:

اختلف المؤرخون فى هذه القبيلة: فمنهم من يعدها من العرب البائدة، ومنهم من يعدها من العرب الباقية وأنها هاجرت من البلاد العربية إلى بلاد فارس.

ويقول الطبري: "ولحقت أميم بأرض وبار، فهلكوا بها، وهى بين اليمامة والشحر، ويقول عنهم ابن خلدون: أنهم أول من بنى البنيان واتخذوا البيوت الآطام من الحجارة وسقفوا بالخشب.[1]

7- حضرموت:

كانت بالقسم المعروف باسمها من بلاد العرب.

8- جرهم الأولي:

كانوا على عهد عاد فبادوا، وكانت ديارهم باليمن.

العرب المتعربة:

هم يكونون العرب الباقية، أى الذين عاشوا، وبقى نسلهم حياً،

---

[1] قلب الجزيرة العربية، ص224.

والعرب المتعربة يعرفون بعرب الجنوب أو الجنوبيين، أو عرب اليمن أو اليمنيين، لأنهم كانوا يسكنون اليمن، وهى فى شبه الجزيرة العربية، كما يعرفون بالعرب القحطانية أو القحطانيين، نسبة إلى أبيهم قحطان بن عامر ابن شالح بن أرفخشد بن سام، ويقال: إن قحطان هذا أول جد معروف للعرب، ورئيس ملوك اليمن الذى يروى عنه أنه أول من تكلم بالعربية من العرب الباقية فيقال إنه تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم، فالمتواتر أن أوائل قحطان أدركت أواخر عاد وثمود[1]، كما يقال أن قحطان أول من اتخذ صنعاء اليمن داراً للملك وكان ملكه حوالى سنة 1845 ق.م، وأنه أول من قيل له: أبيت اللعن، وعم صباحاً.

وقام بالملك بعده بنوه وأبناؤهم، فملك بعده ابنه يعرب، ثم ابنه يشجب، ثم ابنه عبد شمس الملقب بسبأ وإليه تنسب الدولة السبئية، ويمتد عمرها بين 750، 115 ق.م على وجه التقريب، فى الحقبة الثانية من هذه الدولة أصبحت مأرب عاصمة المملكة، وهى على ارتفاع 3900 قدم فوق سطح البحر[2]، وكان بها السد المشهور[3] وكان "بين ثلاثة جبال" يصب ماء السيل إلى موضع واحد منها، وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فسدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص،

---

(1) المصدر السابق، ص228.

(2) تاريخ العرب، لفيليب متى، ج1، ص70.

(3) يرى "كلاسر" أن عهده يرجع إلى سنة سبعمائة قبل الميلاد ومن الكتابات الباقية على جدرانه يبدو أنه أدخلت عليه تحسينات وترميمات عدة فى أوقات مختلفة "جواد على، ج8، ص336، عن دائرة المعارف الإسلامية".

فكانت تتجمع هناك مياه العيون والسيول، ثم إذا أرادوا سقى زرعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة.[1]

وظل السد يؤدى مهمته حتى كانت اليمن بفضله وغيره من مصادر المياه جنة وارفه الظلال[2]، أرض خصبة، وهواء طيب، وزروع، وبساتين كثيرة الخيرات والثمار، ولكن القوم إنغمسوا فى ملذاتهم ولهوا بدنياهم، وتنازع الأفيال بعضهم على بعض ولم يولوا النواحى الداخلية ما تستحق من العناية والاهتمام، ومن هذه النواحى شئون المياه ورى الأراضى الزراعية، فأغفلوا ترميم السدود على مرِّ الزمن، حتى تسرب إليها الفساد فكان سيل العرم الذى خرب البلاد، وهاجر القوم، فتفرقوا فى مواطن أخرى.

وكان لسبأ أولاد كثيرين أشهرهم حمير وكهلان، ومن أولاد حمير التبابعة، وهؤلاء كانوا ملوكاً فى عصور متعاقبة ولم يكن الملك منهم يسمى تبعاً إلا إذا ملك اليمن والشحر وحضرموت وإلا سمى ملكاً.

وكانت منهم بلقيس صاحبة الصرح التى وردت قصتها مع سيدنا سليمان - عليه السلام - فى القرآن الكريم، ومنهم ذو نواس الذى يسمى يوسف وتعصب لليهودية، وأراد إرغام أهل نجران عليها، وقد كانوا من - بين العرب - يدينون بالنصرانية التى جاءتهم على يد أحد أتباع الحواريين، فامتنع أهل نجران عن اعتناق اليهودية، فأضرم لهم النار وحرق كثيراً

---

(1) تاريخ العرب القدامى، ص20 وراجع تفصيل ذلك فى الجزء الثانى لجواد على، ص337 وما بعدها.

(2) مروج الذهب للمسعودى، ج2، ص182.

منهم، وكان ذلك سبباً لاحتلال الحبشة أرض اليمن، ثم احتلها الفرس بعدهم، إلى أن ظهر الإسلام وافتتحها المسلمون.

العرب المستعربة:

وهؤلاء هم عرب الشمال، أو العرب الشماليون، لأنهم كانوا يسكنون شمالى بلاد اليمن، فى تهامة والحجاز ونجد ما وراء ذلك إلى مشارف الشام والعراق، ويسمون كذلك العرب الإسماعيليين لأنهم ينسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ويقال إن أصل إبراهيم من بلاد ما بين النهرين هاجر منها إلى فلسطين ومصر، ثم قدم فى وقت من الأوقات إلى الحجاز، وترك فيه ابنه إسماعيل من جاريته هاجر المصرية، فنشأ إسماعيل وتربى بمكة بين قبيلة جرهم الثانية وتزوج منهم، وكان له أولاد كثيرون ويذكر النسابون أنهم كانوا أثنى عشر ولداً ذكراً، وكان من ذريته عدنان، ولذلك يسمى هذا القسم كذلك العرب العدنانية، وقد نشأ أولاد إسماعيل بين العرب فاستعربوا، ولذلك سموا بالمستعربة.[1]

وقد ورثنا من تاريخ هذه الحقب البعيدة آثاراً مهمة جداً هى "البيت وبئر زمزم، ومقام إسماعيل، والمناسك، والمشاعر التى قبلها الدين الإسلامى الحنيف".[2] وقد تناسل من عدنان شعوب كثيرة انتشروا فى الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة، ومن أولاد عدنان وقحطان كان العرب الشماليون والجنوبيون، الذين تفرعوا فروعاً كثيرة فى شبه الجزيرة العربية.

---

(1) تاريخ العرب القدامى، ص25.
(2) قلب جزيرة العرب، ص237.

العصور الأدبية وجاهلية الشعر

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الأدب العربى إلى عصور، يستقل كل عصر منها بفترة زمنية معينة، وهذه العصور هي:

1- العصر الجاهلي:

وهو العصر الذى سبق ظهور الإسلام بقرن ونصف أو قرنين على الأكثر.

2- العصر الإسلامي:

ويبدأ من ظهور الإسلام إلى سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ، وبعض المؤرخين يقسم هذا العصر إلى قسمين:

أ) عصر صدر الإسلام: ويبدأ بظهور الإسلام وينتهى بانتهاء حكم الخلفاء الراشدين وبدء حكم بنى أمية سنة 41 هـ.

ب) العصر الأموي: ويبدأ بولاية معاوية بن أبى سفيان سنة 41 هـ. وينتهى بسقوط دولة بنى أمية وقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ.

3- العصر العباسي:

ويبدأ من سنة 132 هـ ويستمر إلى سقوط بغداد - عاصمة العباسيين - فى يد التتار سنة 656 هـ.

وبعض المؤرخون يقسم هذا العصر إلى أربعة أقسام:

أ) العصر العباسى الأول: ويمتد مائة عام من سنة 132 هـ إلى سنة 232هـ.

ب) العصر العباسى الثاني: ويمتد أيضاً نحو مائة عام من سنة 232هـ إلى

334هـ وهى السنة التى استولى فيها بنو بويه على بغداد وقد أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط.

ج) العصر العباسى الثالث: ويمتد من سنة 334هـ إلى سنة 447هـ - عند دخول السلاجقة بغداد.

د) العصر العباسى الرابع: ويستمر حتى نهاية العصر أى سنة 656هـ. وهى السنة التى استولى فيها التتار على بغداد.

وهناك من المؤرخين من يقسم العصر العباسى قسمين فحسب، حيث يجعل العصرين الأول والثانى عصراً واحداً يسمونه العصر العباسى الأول، ثم يجعل العصرين الثالث والرابع عصراً ثانياً.

4- العصر التركي:

وينتهى بنزول الحملة الفرنسية على مصر.

5- العصر الحديث:

من بداية القرن التاسع عشر الميلادى حتى أيامنا الحاضرة وهناك خلاف يسير حول بداية هذا العصر، حيث يرى بعض المؤرخين أنه يبدأ بمجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة 1798م، ويرى آخرون أنه يبدأ برحيلها وتولى محمد على حكم مصر سنة 1805م.

وتلك هى تقسيمات عصور تاريخ الأدب العربي، وهى تقسيمات قد تختلف تفاصيلها من باحث إلى آخر، ولكن صورتها العامة لا تتغير.

العصر الجاهلي

نود فى البداية أن نبين معنى كلمة "أدب" ثم معنى كلمة "جاهلية"

وما المقصود بجاهلية الشعر؟ ثم نخوض بعد ذلك فى الحديث عن العصر الجاهلي.

نشأة كلمة أدب:

لم ترد كلمة "أدب" فى العصر الجاهلى مستعملة فى المعنى الذى نستعمله الآن. وهو النشاط الإنسانى الذى يعبر عن صاحبه وعن الحياة تعبيراً جميلاً، بل أنه لم يرد من مادة "أدب" فى العصر الجاهلى إلا كلمة "الأدب" بمعنى الداعى إلى الطعام.

يقول الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد:

نحن فى المشتاة ندعو الْجفَلي لا ترى الآدب فينا ينتقر[1]

وقد اشتقت من كلمة "آدب" بمعنى الداعى إلى الطعام "مآدبة" وهى الطعام الذى يدعى إليه الناس ليأكلوا، وليس وراء بيت طرفه أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت فى العصر الجاهلى من هذا المعنى الحسى إلى معنى آخر.[2]

أما فى العصر الإسلامى فقد استعملت كلمة "أدب" فى معنى تهذيبى أخلاقي، يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "أدبنى ربى فأحسن تأديبي". فأدب فى الحديث الشريف بمعنى "هذَّب".

وفى العصر الأموي، نجدها تستعمل فى المعنى التهذيبى ثم تكتسب معنىً جديداً هو المعنى التعليمي. فلقد كان الخلفاء

---

(1) الجفلي: بفتح الجيم والفاء: الدعوة إلى الطعام. ينتقر: أى يخص جماعة من الناس دون آخرى بالدعوة، فهو يدعو الناس جميعاً إلى مأدبة، وفى هذا مدح بالكرم.

(2) العصر الجاهلي، د/ شوقى ضيف، ص7.

يستخدمون طائفة من المعلمين لأبنائهم يسمونهم المؤدبين يعلمونهم الخطابة والشعر وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم.

وهكذا أصبحت كلمة "أدب" فى هذا العصر مقابلة لكلمة "العلم" وما إن جاء العصر العباسى حتى استعملت كلمة "أدب" فى المعنيين التهذيبى والتعليمي.

وقد سمى عبد الله بن المقفع[1] كتابيه "الأدب الكبير" و"الأدب الصغير" بهذا المعنى. وأطلق أبو تمام[2] على الجزء الثالث من ديوان الحماسة "باب الأدب"، وأطلق البخاري[3] "كتاب الأدب" على باب من أبواب صحيحه الذى جمعه.

وفى القرنين الثانى والثالث الهجريين وما تلاهما من قرون أصبحت كلمة "أدب" تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وقد ألف الجاحظ "البيان والتبيين" وألف غيره كتباً بهذا المعنى ولم تقف كلمة "أدب" عند المعنى التعليمى الخاص بصناعة النظم والنثر، بل اتسعت لتشمل كل المعارف الدينية والثقافية والاجتماعية.

وظلت هذه الكلمة تدل على الثقافة حتى جاء القرن قبل الماضى فتطورت وأصبحت على معنيين. معنى عام: وهو يشمل كل ما ينتجه العقل والشعور والوجدان سواء كان أدباً أو علماً أو ثقافة. ومعنى خاص: وهو الأدب الخالص الذى يعبر عنه الأديب فى معنى من المعانى أو تجربة

---

(1) عبد الله بن المقفع كاتب من كتاب العصرين الأموى والعباسى وهو فارسى وله كتب مترجمة إلى العربية منها الأدب الكبير والأدب الصغير.

(2) من أعظم شعراء العصر العباسى الأول.

(3) من أكبر حفاظ الحديث وكتابه "صحيح البخاري" من أصح كتب الحديث الشريف.

من التجارب بأسلوب مؤثر جميل.

معنى كلمة الجاهلية

الجاهلية: الزمان الذى يكثر فيه الجهل. يقول ابن خالويه إن هذا الاسم حدث فى الإسلام وهو الزمن الذى كان قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم.[1]

ولا يقصد بكلمة الجاهلية أنها مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم، ولكنها تدل على المعنى الذى يقابل كلمة الإسلام.

وقد أريد بها فى الشعر الجاهلى معنى الحمق والطيش تفهم ذلك من قول الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

فالجهل هنا يقصد به السفه والحمق والطيش والتهور وعدم ضبط النفس وفقدان سيطرة العقل وعدم السلوك القويم.

فالشاعر يريد أن يقول: إن كان من أحد سفه أو طيش أو حمق فسيجد فى مقابلتها ثأراً أشد وأقسى منها.

وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة نذكر منها قوله تعالى: (يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)[2] وقوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ}، وقوله: {إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}[3].

---

(1) بلوغ الأرب ج1، ص16.
(2) سورة آل عمران الآية (153)
(3) سورة المائدة، الآية (50).

وقوله : {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ }[1]

ويبدو من تفسير هذه الآيات أن المقصود بهذه اللفظة ما كان قبل مجيء الإسلام.

وفى الحديث الشريف ورد لفظ الجاهلية كثيراً، ومن ذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبى ذر الغفارى عندما عير رجلاً بأمه: "إنك امروء فيك جاهلية". ومما ورد من الأقوال المأثورة قول سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - "إنى نذرت فى الجاهلية أن اعتكف ليلة".

وقول عائشة أم المؤمنين - رضى الله تعالى عنها - "كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء".

فالمقصود فى هذا كله حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك.

المقصود بجاهلية الشعر:

جاهلية الشعر نسبة زمانية وعقيدة أكثر من كونها نسبة فنية، فهناك تشابه كثير فى طرق الأداء الفنى وبناء القصيدة بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامى وما تلاه، ومع ذلك لا تؤثر هذه المشابهة فى نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية. أما الذى يؤثر فى نسبة الشعر إلى الجاهلية كونه صدر فى زمانها أولاً وقيل على ألسنة شعراء لم يدركوا الإسلام، أو أدركوه ولم يسلموا أبداً أو لم يكونوا قد أسلموا بعد.

فليس بدء نزول القرآن الكريم وبعثة محمد - صلى الله عليه

---

[1] سورة الفتح، الآية (26).

وسلم - هى الحد الفاصل بين الجاهلية والإسلام أو بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامي، لأن بدء نزول القرآن الكريم وبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة الإسلامية لم يكن له تأثير كبير فى حياة الإنسان العربى بعيداً عن مكة نفسها، فلم تتأثر هذه الدعوة إلا على مستوى عدد قليل من أبنائها هم الذين أسرعوا إلى إجابة الدعوة حين دعاهم النبى سراً، ذلك لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - ظل محتفظاً بسرية دعوته فى مكة ثلاث سنوات كاملة.

والدارسون القدامى والمحدثون يُعدون عدداً من الشعراء الذين عاصروا النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى بعد هجرته يعدونهم جاهليين، فالأعشى الكبير عندهم شاعر جاهلى على الرغم من أنهم يقولون إنه عمل قصيدة فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - وتوجه إليه ليلقاه لولا أن قريشاً تلقته، وصدته عن غايته وأعطته وأرضته.

وقيس بن الخطيم الأوسى عندهم شاعر جاهلى مع أنه قابل النبى صلى الله عليه وسلم ودعاه النبى للإسلام ولم يسلم ومات قبل الهجرة بعدة شهور.

ولبيد بن ربيعة العامرى شاعر جاهلى لأنه لم يقل - فى ظنهم - بعد الإسلام إلا بيت شعر واحد، مع أن هذا الرجل لم يسلم إلا بعد الهجرة بثمانى سنوات لأنه كان من المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبى - صلى الله عليه وسلم - من غنائم هوازن والطائف بعد غزوة حنين.

ويمتد الشعر الجاهلى إلى الوراء ليشمل كل أثر شعرى موثوق

بنسبته للعصر الجاهلي، لأن هذا العصر هو بداية ما نعرف من آثار أدبية تنسب للعرب فكل شعر تصح نسبته إلى ما قبل الإسلام هو من الشعر الجاهلي.

ويرى الباحثون فى تاريخ الأدب أن العصر الجاهلى يمتد فى الزمن قبل الإسلام بنحو قرن ونصف وهى الفترة التى تكاملت فيها للغة العربية خصائصها والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلي، (لاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال: أما الشعر العربى فحديث الميلاد، صغير السن وأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس، بن حُجر ومهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار بمائتى عام.[1]

وهى ملاحظة دقيقة لأن ما قبل هذا التاريخ فى الشعر العربى مجهول، من أجل هذا نقف بالعصر الجاهلى عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلى واللغة الجاهلية والذى تكامل فيه نشوء الخط العربى وتشكله تشكلاً تاماً.

الحياة السياسية وبعض المدن المهمة:

لم يعرف العرب الجاهليون الحياة السياسية المنظمة كما نعرفها فى النظم الدولية المعاصرة، وإنما قامت الحياة على أساس قبلى بدائى

---

[1] كتاب الحيوان للجاحظ، 74/1، طبعة الحلبي.

فى أغلب أنحاء الجزيرة العربية ولكن ذلك لم يمنع من قيام الأنظمة السياسية المبنية على وجود حاكم ومعاونين وجيش وإدارات حكومية منظمة تشبه إلى حد كبير ما نراه قائماً فى الأنظمة الدولية.

ومن هذه الأنظمة التى قامت فى العصر الجاهلى إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة فى الشمال.

الغساسنة:

ويعودون فى رأى النسابين إلى أصل يمنى فهم من عرب الجنوب، وقربهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم ويزعم المؤرخون العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو، ولذلك يسمون آل جفنة وقد استقروا فى الشام، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذى غزا فلسطين 497م.

وتمزقت وحدة الغساسنة بعد فترة من الزمن ثم يلمع اسم الحارث الأصغر ثم ابنيه: النعمان، وعمرو، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت فى حروب مع بنى أسد وبنى فزارة، ووقع كثير من أسرى القبيلتين فى يد عمرو، فقصده النابغة الذبيانى يمدحه متوسلاً إليه فى فك سراحهم فأكرمه كما أكرمه أخوه النعمان وصنع فيه مدائح كثيرة كما مدحه حسان بن ثابت.

ومن ملوك الغساسنة جبلة بن الأيهم، الذى أسلم ثم ارتد فى عهد عمر بن الخطاب، وفى أخبارهم ما يدل على أنهم كانوا على قدر كبير

من الترف.

المناذرة:

وهم - أيضاً - من أصل يمنى وقد استقروا فى العراق وقربهم الساسانيون أعداء الرومان وربما كان جَذِيمة الأبرش أهم ملك أسطورى من المناذرة: ومن ملوكهم النعمان الأعور أو السائح الذى اشتهر ببناء قصرى الخورنق والسدير، ويُعد عصر المنذرين ماء السماء أزهى عصور المناذرة، واشتهر المنذر بن ماء السماء بين العرب بأن كان له يومان يوم نعيم ويوم بؤس، فكان أول من يطلع عليه فى اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل وأول من يطلع عليه فى اليوم التالى يقتله وممن قتله فى ذلك اليوم المشئوم الشاعر عبيد بن الأبرص، ومازال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل فى يوم حليمة.

ثم خلفه ابنه عمرو بن هند، ولقّبه العرب بالمحرق، لأنه نذر أن يقتل من بنى تميم مائة رجل حرقاً - وبر بنذره فى يوم أوار باليمامة.

وانتهت حياة عمرو بن هند على يد الشاعر عمرو بن كلثوم.

ومن ملوك المناذرة النعمان الثالث بن المنذر المكنى بأبى قابوس، وهو ممدوح النابغة الذبيانى وحدثت بينهما جفوة بسبب وفود النابغة على الغساسنة وقد اعتذر إليه بقصائد معروفة.

وقد قتله كسرى الثانى ملك الفرس ونصب على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى الذى ثارت عليه قبيلة بكر حمية للنعمان وهزمته هو والفرس فى يوم ذى قار، وبقيت الأمور مضطربة فى الحيرة حتى استولى

عليها خالد بن الوليد سنة 633م.[1]

إمارة كندة:

قامت بين إمارتى الغساسنة والمناذرة وكان أمراؤها يخضعون لليمن، ويرجع النسابون بها إلى عرب الجنوب وأشهر ملوكها فى القرن الخامس؛ حُجر الملقب بآكل المرار وخضعت له قبيلتا بكر وتغلب ولكنهما ثارتا ضد ابنه عمرو، وما لبث أن اشتعلت الحرب بينهما أربعين عاماً وهى حرب البسوس الشهيرة، وانتقل الملك إلى ابنه الحارث ثم إلى أولاده: شرحبيل ومعد يكرب وحُجر الذى حكم أسدا. وقد ثارت أسد على حُجر وقتلته وحاول ابنه امرؤ القيس الشاعر أن يثأر لأبيه ويسترد ملكه ولكنه فشل.

بعض المدن المهمة:

وقامت بعض المدن فى العصر الجاهلى بدور مهم فى الحياة الجاهلية يشبه الدور الذى تقوم به الدولة، ولم يكن ذلك غريباً فقد قامت المدن اليونانية منفردة بدور رائد، وكانت كل مدينة دولة قائمة بذاتها لها دورها الذى لا ينكر فى تطور الأحداث التاريخية.

ومن هذه المدن: مكة ويثرب أو المدينة، وبعض القرى الخاصة باليهود شمالى المدينة وأشهرها خيبر وفدك وتيماء.

ونتيجة لذلك تميزت حياة الجاهليين بعدم الاستقرار وعدم الأمن وقامت الحروب بينهم لأتفه الأسباب حتى أصبح سفك الدماء سُنة من

---

[1] أنظر رسالتى فى الماجستير وعنوانها شعر شعراء الحيرة فى العصر الجاهلي، دراسة وجمع ما لم يجمع.

سننهم فهم دائماً قاتلون مقتولون لا يفرغون إلا من دم إلى دم، ولذلك كان أكبر قانون عندهم هو قانون الأخذ بالثأر فهو شريعتهم المقدسة وهى شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذا كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر، والنساء، والطيب، حتى يثأروا من غرمائهم، وكانوا يسمون حروبهم أياماً، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً، وهذه الأيام مدونة فى كتب الأدب والتاريخ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة 211هـ صنف فى ألف ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده، ولم يصل إلينا هذا الكتاب وإنما وصل إلينا بشرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها يؤلف فيها من بعده كثيرون أهمهم ابن النديم فى الفهرست وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وشرح حماسة أبى تمام للتبريزي.

وعقد لها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن الأثير فى الكامل والنويرى فى نهاية الأرب فصولاً طويلة، وكذلك صنع الميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة وثلاثين يوماً، ضبط أسماءها وذكر القبائل التى اشتركت فيها.

وتسمى هذه الأيام والحروب بأسماء البقاع والآبار التى نشبت بجانبها مثل يوم عين أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس، ويوم شعب حَبلة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم.

وقد تسمى بأسماء من أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب

داحس والغبراء.

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادي، وكان سببها اعتداء كُليب؛ سيد تغلب وكان قد طغى واشتد بغيه - على ناقة البسوس خالة جساس بن مرة من بنى بكر، إذ رمى ضرعها بسهم، ولما علم جساس قتل كليباً، دارت رحى حرب طاحنة - فيما يقال - أربعين سنة، وكثرت أيامها مثل يوم عُنيزة وكان سجالاً بين الطرفين ويوم أوار وكان لتغلب ويوم قصة (تحلاق اللمم) وفيه انتصرت بكر.

ولما انتهت حرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمرو الكندى فأصلح بينهما وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة.

ونمت فى العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب، وبطلها التغلبى المهلهل أخو كليب، وألفت عنه قصة شعبية باسم: (الزير سالم).

وأما حرب داحس والغبراء فكانت فى أواخر العصر الجاهلى وكان السبب فى نشوبها سباق على رهان بين فرسين وكان أجراهما سيدا عبس وذبيان قيس بن زهير، وحذيفة بن بدر، وأوشك داحس أن يفوز، غير أن رجلاً من ذبيان كان قد كمن له فاعترضه ونقره فعدل عن الطريق وبذلك سبقته الغبراء وأَبى قيس أن يعترف بهذا السبق، وطلب الرهان المضروب، وحدث صدام بين الفريقين ولم تلبث الحرب أن اندلعت على أثره وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف فتحملا ديات القتلى وبذلك انتهت الحرب بين

القبيلتين، وكان قد انضم إليهما من الأحلاف فقد انضمت عامر إلى عبس، بينما انضمت تميم وأسد إلى ذُبيان وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنترة بطل هذه الحرب، وكان من عبس فألفت عنه قصة شعبية مشهورة.

الحياة الاجتماعية والدينية:

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها الذين يربط بينهم الدم والنسب، والعبيد وهم رقيقها المجلوب من الدول المجاورة وخاصة الحبشة، والموالى وهم عتقاؤها ويدخل فيهم الخلعاء وهم الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم لكثرة جرائمهم.

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، وشاعت فى المجتمع الجاهلى عادات لعل أهمها شرب الخمر، واستباحة النساء والقمار، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة وبعيراً ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً يتجرون عليها ثمارهم، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت وعلى أصحابها غرم إن خابت وأكبرها نصيباً يسمى المعلي. أما الأربعة الباقية فلا حظ لها حتى إن فازت.

أما النساء فكن إماء وحرائر وكانت الإماء كثيرات وكان منهن عاهرات وقينات يضربن على المزهر فى حوانيت الخمارين وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا أولادهن إلى أنفسهم إلا إذا أظهروا بطولة.

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخيمة إلا إذا كانت من الشريفات فإنه كان يقوم لهن على هذه الأعمال بعض الجواري.

وبلغ من منزلة بعض الشريفات أنهن كن يحمين من يستنجد بهن ويردون إليه حريته إذا استشفع بهن على نحو ما ردت فكيهة إلى السليك ابن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار.

وقد دعم الإسلام مكانة المرأة الجاهلية فحرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها، كما حرم زواج المقت وهو أن يجمع الرجل بين الأختين، وحرم الشفار وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له على أن يزوجه أخته.

المعارف فى العصر الجاهلي:

لم يكن للعرب فى بداوتهم من العلوم إلا بعض إلهام بما يحتاجون إليه فى حياتهم الفطرية، فقد عرفوا شيئاً من الطب والبيطرة، وكانوا يداوون مرضاهم بالعقاقير والحجامة والكى والأشربة وخصوصاً العسل.

وربما استعملوا السحر والرقي، والتعاويذ، لإبراء الملسوع وإخراج الجن والشياطين وأطباؤهم فى الأغلب الكهان والعرافون، وقل من كانت له معرفة صحيحة بهذا الفن كالحارث بن كلدة الكندي.

وعرفوا شيئاً من علم النجوم، ومهاب الرياح بكثرة تتبعها والنظر إليها لأنهم كانوا يهتدون بها فى أسفارهم. ويستدلون على

سقوط الغيث، وكانت لهم معرفة بالأنساب والأيام والأساطير والقيافة وهى الاستدلال لهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه والاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها، وبالكهانة وهى معرفة الأمور المستقبلة، وبالعرافة وهى مختصة بالأمور الماضية.

أما الزجر فهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث ـ وكان الرجل يعهد إلى الطائر فيرميه بحصاة أو يصيح به، فإن والاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به وإن والاه مياسره تشاءم وتطير.

وربما ارتبط الزجر بالأمور العامة ولم يقتصر على أصوات الحيوان، وحركاته فقط، وأقترن بالعرافة، ومن ذلك ما روى فى كتاب المستطرف للأبشيهي[1] من أن كسرى بعث إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زاجراً ومصوراً وقال للزاجر أنظر ما ترى فى طريقك وعنده، وقال للمصور ائتنى بصورته ـ فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ـ عليه السلام ـ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيسود أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

الحياة الدينية فى العصر الجاهلي:[2]

كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تثبت فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ودخلت عندهم عبادة النجوم

---

(1) المستطرف للأبشيهى، جـ2/89، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

(2) أنظر: العصر الجاهلي، د/ شوقي، ص89، الطبعة السابعة، دار المعارف.

والكواكب من قديم وجاءتهم من الصائبة وبقايا الكلدانيين ومن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس، وكانوا يقدسون النار.

ويقال أن المجوسية كانت متفشية فى تميم وعمان والبحرين وبعض القبائل العربية والمجوس كما نعرف ثنوية يؤمنون بآلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر. وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً.

ومن آلهة الجاهليين: اللات والعزى ومناة وود، وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز وكان معبدها فى الطائف ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء، بنيت عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه.

وكانت العزى مثل اللات، أما مناة فهى صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة، وربما كان فى اسمها ما يدل أنها ترمز إلى الموت وكانت معظمة عند هُذيل وخُزاعة والأوس والخزرج.

أما ود فهى من الآلهة الجنوبية وكان صنمه بدومة الجندل وظل منصوباً إلى أن جاء الله بالإسلام، وكان سواع صنم هذيل وكنانة، أما يغوث فهو صنم مذحج، وعشائر من مرار وهوازن وكان يعوق صنم همدان وخولان وما والاهما من القبائل.

أما نسر فكان معبود حمير، وانتشرت عبادته فى الشمال،

ووراء هذه الأصنام التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية. ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح مكة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان أعظمها عند القرشيين هُبل الذى كان يصيح أبو سفيان باسمه فى معركة أحد قائلاً: اعمل هبل..

اليهودية:[1]

لا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد اليهود منتشرين فى اليمن والحجاز والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلى إلى الجزيرة العربية على أثر اصطدامهم بالقيصر اطيطوس وهدمه للهيكل سنة 70م.

وقد استطاع يهود اليمن فى أوائل القرن السادس الميلادى أن يؤثروا فى ملك من ملوك التبابعة هو ذو نواس وأن يدخلوه فى دينهم ودفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم وهم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم القرآن الكريم ولكن الأحباش النصارى انتقموا لإخوانهم وأزالوا دولة ذى نواس وظلوا باليمن نحو خمسين عاماً إلى أن أجلاهم الفرس، ودخل كثير من اليهود الإسلام مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه ولهما فى –الإسرائيليات- تلك التى عاشت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير.

وبجوار يهود اليمن كان يهود الحجاز الذين انتشروا فى يثرب

---

(1) أنظر: السيرة النبوية لابن هشام، والعصر الجاهلي، د/ شوقى ضيف، ص97.

وخيبر ووادى القرى وتيماء، وفى السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم فى دار ندوة تسمى المدارس وأنهم كانوا يقرءون التوراة والمشنة والزبور (مزامير داوود) بلغتهم العربية القديمة واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء.

النصرانية:

بدأ انتشارها فى اليمن منذ القرن الرابع الميلادي، وكان من أهم أسباب انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة وكانت نجران أهم مواطنها، وقد نكبهم ذو نواس اليهودي، كما مر بنا وقد أعانهم الأحباش بقيادة أبرهة، فذاعت النصرانية واعتنقها كثيرون وبنيت لها كنائس فى غير مدينة ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران.

ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى اليمن أشهرها القليس فى صنعاء، وانتشرت النصرانية بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم ونزلت إلى عرب العراق أيضاً إلى تغلب وبكر وإياد، وتغلغلت فى الحيرة، ويزعم اليعقوبى أن قوماً تنصروا من قريش قبل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدي، وانتشرت النصرانية - أيضاً - فى طيء ودومة الجندل.